الرهبان الشهداء

في

الرهبانيّة الباسيليّة المخلّصيّة

بقلم الأرشمندريت جان فرج المخلّصيّ

أَنْسَتْنا أيّامُ الرفاهية والبحبوحة لغة الشهادة، لا بل غيّبتها عن أذهاننا حتّى بتْنا لا نقرأها إلاّ في سِيَر القدّيسين الغابرين. غير أنّ هذه الأيّام الشريرّة التي نعيشها أحيَت من جديد ذكرى الشهادة المخضّبة بالدم، فلا يمرّ يوم إلاّ ونقرأ خبرًا عن شهيد سقط هنا أو هناك دفاعًا عن إيمانه المسيحيّ وتمسّكًا به. كلّنا سمعنا بالأب جاك هامل الذي ذُبح على مذبح الربّ أثناء احتفاله بالقدّاس الإلهيّ، فإذا به يغدو الذبيح لا مقدِّمَ الذبيحة فحسب. كما كان لنا أن نتابع شهادة الأب فرانس فان درلوخت اليسوعيّ، الذي أحبّ شعبه إلى الغاية ورفض أن يتخلّى عنه وقت الشدّة، فكان مصيره الشهادة، شهادة الدم. وكيف ننسى المطرانَين المخطوفَين بولس اليازجي ويوحنّا إبراهيم مع بعض الآباء الذين لا يزال مصيرهم غامضًا. يضيق بنا الوقت إن تكلّمنا أيضًا على طغمة المؤمنين الأبرياء الذين منَّ الله عليهم بالشهادة، سواء في العراق ومصر وسوريّا وليبيا أم في أوروبّا وأميركا وأستراليا وأفريقيا. هؤلاء كلّهم "مشهود لهم بالإيمان... نُشِروا، امتحنوا، ماتوا بحدّ السيف... وأَبَوا النجاة لكي يحصلوا على قيامة أفضل" (عب ١١: ٣٣-٣٥).

حسبنا في هذا المقال أن نتناول نصيب الرهبانيّة الباسيليّة المخلّصيّة من نعمة الشهادة، ونخبرَ بإيجاز عن الشهداء الأبرار الذين سقطوا على مرّ السنوات على مذابحها، منذ تأسيس الرهبانيّة سنة ١٦٨٢ إلى زمننا هذا.

تاريخ مخضّب بالدم[١]

عاشت الرهبانيّة المخلّصيّة، مثلها مثل أبناء هذا الوطن، أيّامًا عصيبة دفعت ثمنها أحيانًا دمًا ودموعًا. فتاريخها موسوم بالشهادة، وهي، إن حيت، فبزخم الآباء الأبرار الذين تكرّسوا على مذابحها وناضلوا حتّى الشهادة تمثّلاً بمعلّمهم يسوع المسيح. نكبات عدّة أَلّمت بالرهبانيّة على مدى تاريخها: ١٧٧٧، ١٧٩٢، ١٨٤١، ١٨٤٥، ١٨٦٠، ١٩٨٥. نُهبت أديارها وحُرِقت، تبعثرت وثائقها وضاعت، شُرِّد رهبانها وهُجِّروا، قُتِل بعضهم وعُذِّب آخرون... كيف لا وقد قُدِّرَ لدير المخلّص، الدير

---

١ أستوحي هنا من: الأبوان جبرائيل حدّاد والياس كويتر، **السنكسار الرهبانيّ المخلّصيّ**، دير المخلّص – جون، ١٩٦٥؛ الأب الياس كويتر، **دليل الرهبانيّة المخلّصيّة العامر**، منشورات الرهبانيّة المخلّصيّة، المطبعة البولسيّة، ١٩٩٢، ص ١٠٣-١١٢؛ الأب ميلاد الجاويش، **يا مخلّص العالم. اليوبيل المئويّ الثالث لتأسيس دير المخلّص العامر**، دير المخلّص – جون، ٢٠١١، ص ٩٨-١٠٢.

الأمّ، ولغيره من الأديار المخلّصيّة أن تتواجد في مناطق مختلطة ذات حساسية عالية وهشاشة أمنيّة فاضحة (الشوف، الجنوب، البقاع، سوريّا).

١– النكبة الأولى سنة ١٧٧٧

سنة ١٧٧٧، اشتعلت الحرب بين الأمير يوسف شهاب وأحمد باشا الجزّار والي عكا. هجم هذا الأخير على إقليم الخرّوب ودحر عساكر الأمير، فذُعر كلّ سكّان الجبل ولاذ الرهبان بالفرار. إلاّ أنّ كاتب الجزّار المدعوّ يوسف السكروج، وهو أرثوذكسيّ، قصد الدير وطمأَن الرهبان وأوصاهم بأن يلبثوا في أديرتهم آمنين. بعد سنة، أي سنة ١٧٧٨، في اليوم ذاته، استفاق الرهبان فإذا بعساكر الجزّار تُحيط بأديرة الرهبانيّة الثلاثة، أي دير المخلّص ودير الراهبات المخلّصيّات ودير السيّدة. فأسرع الرهبان إلى الكنيسة وحملوا جسد الربّ والذخائر المقدّسة وهربوا عبر الطرقات الوعرة إلى رؤوس الجبال، والخيل وراءهم تطاردهم. إلاّ أنّ شيخًا مسنًّا هو الأب باخوميوس الدمشقيّ لم يتمكّن من الهرب واختبأ في المطبخ، فعثر عليه العساكر وذبحوه ثمّ نهبوا كلّ ما وقع تحت أيديهم ودنّسوا الأماكن المقدّسة.

وبحسب التقليد في الرهبانيّة واعتمادًا على بعض الوثائق المبعثرة، هجم عساكر الجزّار في ذلك اليوم نفسه على دير السيّدة، القريب من دير المخلّص، فأحرقوه ونهبوه وذبحوا مَن كان فيه من الرهبان والمبتدئين. ولم يبقَ من ذلك الدير القديم إلاّ بعض الأقبية الشاهدة حتّى الآن على وحشيّة الجنود وشهادةِ الرهبان وبلاطة تذكّر بالمأساة الأليمة، تقول: "بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٧٧٧ استشهد في هذا المكان بعض الرهبان المخلّصيّين على أيدي عساكر أحمد باشا الجزّار والي عكا أثناء الحرب التي شنّها على الأمير يوسف الشهابيّ حاكم لبنان آنذاك".

٢ – النكبة الثانية سنة ١٧٩٢

في أواخر سنة ١٧٩١، اجتاح جيش أحمد باشا الجزّار إقليم الخرّوب لمحاربة الأمير حيدر ملحم شهاب والأمير قعدان شهاب. فدبّر الأب العامّ أغابيوس مطر، بعد موافقة رئيس عامّ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، انتقال الراهبات إلى دير سيّدة مشموشة قرب جزّين، والرهبان إلى الأديار المخلّصيّة البعيدة عن دير المخلّص. كما أقام الرئيس العامّ حرّاسًا يتناوبون على حراسة الأديرة التي خلت من الرهبان، وهم الآباء: تيموتاوس كيّال ويوسف نصر وأكاكيوس أبو عبد الله والأخ إيسيدورس هرمس. وأتت جيوش الجزّار وملأت إقليم الخرّوب، في حين خيّمت جيوش الشهابيّين في عانوت ودايّا وشحيم. وأخذ جيش الجزّار يقطع الأشجار ويحرق المنازل وينهب الأموال ويُلزم الناس بالمحاربة وعاث في الأرض خرابًا ونالت الأديار المخلّصيّة نصيبها، وتهدّمت بيوت الشركاء وأُتلفَت الأشجار، ودامت هذه الحال أكثر من سنة. وفي ذات يوم، أتى الرهبان المذكورون أعلاه ليتفقّدوا دير الراهبات فوجدوه خاليًا من الجنود، فقضوا فيه ليلة. وفي الغد، وكان نهار أحد في ٣٠ كانون الثاني ١٧٩٢، أقاموا الذبيحة الإلهيّة. بعد القدّاس وصلاة

الشكر، وفيما هم يخرجون من الكنيسة، إذا بشرذمة من العساكر تُحيط بهم وتذبحهم وتنهب ما معهم. ولّما علم المسيحيّون باستشهادهم، أتوا ليلاً ودفنوهم في كمنتير دير الراهبات.

٣ – النكبة الثالثة سنة ١٧٩٩

بعد النكبة الثانية التي أَلَمّت بالرهبانيّة سنة ١٧٩٢، عادت عساكر الجزّار واجتاحت منطقة صيدا والشوف وزرعت الخراب فيها وأزهقت الأرواح. وممّا زاد الطين بلّة أنّ الطاعون ضرب البلاد فأمات واحدًا وأربعين من الرهبان المخلّصيّين الذين استُشهدوا وهم يلازمون المرضى ويخدمونهم حتّى آخر رمق من حياتهم.

٤ – استشهاد الأب انوفريوس حتحوت

قتله الدروز في الباروك سنة ١٧٩٧.

٥ – استشهاد الأب يعقوب الحدّاد

عيّنت السلطة الرهبانيّة الأب يعقوب الحدّاد لخدمة النفوس في عكّا. وهو في طريقه إلى مركزه الجديد دهمه المتاولة في بلاد بشارة (جبل عامل في الجنوب) وقتلوه في شهر آب سنة ١٨٣٩.

٦ – ثورة ١٨٤١

في ثورة الدروز الأولى، نال الرهبانيّة ثلاثة شهداء وهم: الأخ برثينه صقر والأخ الياس بلاطي. ذبحهما الدروز في ١٢ آذار ١٨٤١. وذبحوا أيضًا الأب جرجس كركجي في ٢٩ كانون الأوّل ١٨٤١ في البقاع.

٧ – استشهاد الأخ بابيلوس

تعرّض دير القدّيسَين سرجيوس وباخوس في معلولا، خاصّة الرهبانيّة المخلّصيّة، للسرقة والنهب، وقام العسكر التركيّ بقتل الأخ بابيلوس سنة ١٨٤٩.

٨ – نكبة سنة ١٨٦٠

بدأت الفتنة سنة ١٨٥٩، بينما كان ولد درزيّ وآخر مسيحيّ يلعبان في بيت مري بلعبة "الكلّة"، وتخاصما فكبُرَ خصامهما إلى أن وصل الى الطائفتَين، وامتدت القلاقل من بيت مري الى الساحل والغرب والشوف ودير القمر وجزّين ومنها إلى وادي التَيم ودمشق، فكانت حوادث ١٨٦٠ المشؤومة[٢].

[٢] الدكتور يوسف مزهر، **تاريخ لبنان العام**، (بيروت، ١٩٥٦ ؟)، ص ٦٣٣.

أ – استشهاد رئيس دير الملاك مخائيل في عمّيق الشوف

أخذ الفريقان يتأهّبان للقتال، فكان كلّ فريق يقتل مَن يراه منفردًا من الفريق الآخر. ففي ٩ آذار ١٨٦٠، قتل محيي الدين أبو تين من كفرقطرة الأب أثناثيوس نعّوم، رئيس دير عمّيق، في غرفته[٣]. فقتل النصارى انتقامًا له دروزًا في خان الشيّاح[٤]. كما قُتل في السنة نفسها الشمّاس إيجيديوس حايك والأخ بمفيليوس زيدان في عمّيق.

ب – استشهاد رئيس دير النبيّ الياس في رشميّا

هجم الدروز على الدير ونهبوه، فما كان من رئيس الدير الأب غريغوريوس صقر إلا أن هرب إلى أحد بيوت أبناء رشميّا. فلحقوا به وقتلوه، وذلك سنة ١٨٦٠.

ج – شهداء سنة الستّين في دير المخلّص [٥]

اندلعت الثورة في كلّ أنحاء لبنان وسوريّا وعمّت خصوصًا دير القمر وحاصبيّا وزحلة ودمشق، والتهمت نارها أيضًا دير المخلّص. فقد هجم الدروز عليه وأحرقوه ونهبوا الأمتعة وسرقوا الأواني المقدّسة وقتلوا بعض الرهبان. أمّا الباقون فتشرّدوا في الجبال الوعرة والتجأوا إلى الأدغال والمغاور واختبأوا في بساتين صيدا. لكنّ يد الغدر والحقد كانت تلاحقهم أينما ذهبوا، فدهمت البعض منهم في كرم الزيتون جنوبيّ الدير، وقبضت على الآباء نقولا فسفس ونعمة الله رزق وثاوضوسيوس لطفي وأندراوس حجّار ونهبت ما كان في حوزتهم من مال، ثمّ ذبحتهم وأحرقت أجسادهم. كان ذلك في ٢١ أيار [٦] ١٨٦٠.

---

[3] Francois LENORMANT, **l'Histoire des massacres de Syrie**, Paris, Hachette, 1860, p. 9. "Le 17 avril un parti de Druses envahit subitement le couvent Grec catholique d'Ammik, situé dans les environs de Deir-el-Kamar. Le monastère fut pillé et incendié ; le P. Athanase (Naoum), supérieur, égorgé… »

Baptistin POUJOULAT, **La Vérité sur la Syrie et l'expédition Française**, Paris, Gaume Freres et J. Duprey, 1861, p. 174. « Au fond de la vallée apparait le couvent incendié d'Ammik, appartenant aux Grecs catholiques. Les Druses le dévastèrent le 17 avril dernier, et y égorgèrent le père Athanase (Naoum), supérieur du couvent. Bechir-bey, chef Druse conduisait les bandits. Il accusa ensuite notre hôte, Gebraïl el Kouri, d'avoir lui-même assassiné le père Athanase. Le chrétien s'étant facilement justifié devant l'autorité turque, Bechir-bey mit sa tête à prix. Il offrit cent louis à celui qui lui apporterait la tête de Gebraïl. Bechir-bey s'est, dit-on, enfui dans le Haouran, et Gebraïl a encore la tête sur ses épaules. »

[٤] الدكتور يوسف مزهر، ص ٦٣٣.

[5] Baptistin POUJOULAT, pp. 41-42. "De tous les couvents des environs de Sayda, le plus important était le monastère grec-uni de Deïr-el-Moukhallès. Depuis deux siècles qu'il existait, ce monastère avait, dans toutes les luttes du pays, même au temps du féroce Djezzar-pacha, été considéré comme une terre neutre et sacrée, respectée par les différents partis. Au commencement même de cette guerre, les Druses avaient fait dire aux moines de Deir-el-Moukhallès, de rester parfaitement tranquilles, qu'ils seraient encore cette fois considérés comme neutres. Aussi tous les chrétiens des environs y-avaient-ils déposé, comme en un lieu de sûreté, ce qu'ils avaient de plus précieux. Mais, là comme à Djezzine, l'annonce des Druses n'était qu'un piège. Le 4 juin, les portes du monastère ont été subitement forcées ; cent cinquante moines et frères sont tombes sous le coup des assassins, et le couvent a été entièrement pillé. Pour des pillards, du reste, le coup en valait la peine, car le butin des Druses, grâce aux dépôts faits par les chrétiens du voisinage, monta à plusieurs millions de piastres turques. »

[6] Abbé Jean-Baptiste JOBIN, **La Syrie en 1860 et 1861 Lettres et Documents**, Lille, L. Lefort, 1862, p. 12. « Lettre du R.P. Henri Prunières, supérieur des Jésuites à Saida, le 4 juin 1860, au Père P. X. : « … une dizaine de religieux Grecs

كما هجم الدروز على مزرعة بعانوب التابعة لدير المخلّص، وداهموا الشمّاس بولس هرمس والأخ مخائيل أغابيوس اللذَين كانا يشتغلان في الأرض، وذبحوهما في ٢٢ آيار ١٨٦٠.

هناك مَن تسنّى لهم الهرب، لكنّ الدروز لحقوا بهم وقتلوا الآباء امبروسيوس الصغبيني وسلوانوس وأثناسيوس وإيليّا فاضل، قرب معبد عبرا القديم، وذلك في ٢٢ أيار ١٨٦٠. أمّا الأب وهبي بركات فبقي هاربًا في البراري، فمات من فرط العناء والتعب والجوع سنة ١٨٦٠.

ما يلي، بعض ما كُتب عن تلك المأساة:

– كتب المؤرّخ يوسف مزهر ما يلي: "في ٣ حزيران ١٨٦٠، نزل قاسم حماده مع بعض الشبّان إلى دير المخلّص فنهبوا أدوات الكنائس ثمّ أحرقوا وقتلوا ١٧ راهبًا من رهبانه".[٧]

– كما كتب الكونت دوريجيللو Durighello، قنصل فرنسا في صيدا، إلى الكونت بنتيفوليو Bentivoglio، قنصل فرنسا العامّ في بيروت، ما يلي: "في ٨ حزيران ١٨٦٠، هرب ليلاً ثمانية رهبان من دير المخلّص الى صيدا ولما وصلوا الى بساتينها داهمهم الدروز والمسلمون وقتلوا ستة منهم، وواحد هرب والآخر لجأ الى قنصل فرنسا في صيدا. في تلك الأثناء أحرق الدروز دير المخلص والأديار التابعة له، وبقي الحريق يلتهمها ثلاثة أيام بعد أن نهبت... في الحوادث السابقة، على إثر تدخل قنصل فرنسا في صيدا، كان يحرس الدير بعض الجنود النظاميين... أما اليوم ١٨٦٠ فالمواشي والغلال والأثاث وأواني الكنيسة المختلفة وكل الحوائج التي هُرّبت الى الدير من القرى المجاورة فقد نهبت كلها ثم أحرق الدير حرقا كاملا... أن بين ١٣٠ راهبا وراهبة كانوا يسكنون في دير المخلص ودير الراهبات ودير السيدة ودير المزيرعة ودير عين الجوزة ودير رشميا ودير عميق: ٧٣ هربوا الى صيدا، و٤٥ ضاعوا و١٢ قتلوا أو ذبحوا..." (من رسالة قنصل فرنسا في صيدا بنتيفوليو الى دوريجيل قنصل فرنسا العام في بيروت في ٨ حزيران ١٨٦٠).

– كتب المستر جراهام Graham الإنكليزيّ[٨]، وهو رجل دولة ذو مكانة في بلاده وصديق الزعيم سعيد جنبلاط. كتب من بيروت في ١٨ تموز ١٨٦٠ إلى اللورد دوفويل رسالة مسهبة عن المذابح وقال:

---

catholiques de Saint-Sauveur ont été victimes de ces attentats ; ils ont été tués en fuyant de leur couvent, qui a été saccagé et brulé par les infidèles ; trois autres couvent ont été également détruits; et remarquez que c'est après avoir eu les assurances de sécurité les plus complètes de la part de Said-Djemblat, le principal chef des Druses. »

Un témoin oculaire, **Souvenirs de Syrie, (Expédition Française de 1860)**, Paris, Plon – Nourrit et Cie., 1903, p. 43 : « …Les Druzes y avaient pillé trois couvents grecs-unis du voisinage (St-Sauveur, Couvent des Sœurs Salvatoriennes et Couvent Notre Dame-noviciat), et poursuivi les fuyards jusqu'aux portes de la ville, ou ces derniers espéraient trouver un refuge. Mais les musulmans refusèrent de les y laisser entrer, les abandonnant ainsi au glaive des massacreurs. On peut se figurer la terreur des chrétiens de Saida, qui entendaient les cris des victimes et voyaient les concitoyens musulmans aider les Druzes dans leur œuvre de carnage. »

[٧] الدكتور يوسف مزهر، ص ٦٣٧.

[8] Louis de BAUDICOUR, **La France au Liban**, Paris, E. Dentu Libraire et Challamel Ainé, 1879, p. 130. « Un extrait du rapport de M. Cyril Graham qu'il a adressé à lord Dufferin. Beyrouth, le 18 juillet 1860 : … Les Druses attaquèrent

"في أوائل حزيران هجم الباشبوزق وغيرهم من الاسلام من أهل صيدا وأنقضوا على دير في ضواحي صيدا (دير المخلص) فنهبوا وقتلوا ستّة عشر راهبا...".

د – شهداء سنة الستّين في دير القمر

طالما خدم الرهبان المخلّصيّون دير القمر وتفانوا في خدمة أهلها في السرّاء والضرّاء. ففي سنة ١٨٦٠، وقبل اندلاع الثورة في دير القمر، منعَ الأتراك المؤَن عن البلدة ثمّ أخذوا يجمعون السلاح من الأهالي. لم ينفع التوسّل ولا التوسّط ولا تسليم السلاح ولا تسليم حلى النساء وجواهرهنّ إلى الحاكم التركيّ لردّ الهجمة الدرزيّة. تجمّع السكّان في سرايا دير القمر بطلب من الحاكم التركيّ الذي وعد بحمايتهم من القتل. لكنّ الدروز هجموا في ٩ حزيران وذبحوا النصارى كالغنم، فسالت الدماء كالأنهار. وفي اليوم التالي، هجم الدروز بِخَيلِهم على الكنائس وكسروا الأجراس ودنّسوا المذابح ونهبوا الأواني المقدّسة ثمّ قتلوا الرهبان. فكان نصيب الرهبانيّة أن استُشهدَ الأبوان أغناطيوس الحاج وقزما سابا والشمّاس روفائيل بربارة.

هـ – شهداء سنة الستّين في زحلة

كانت زحلة تُدعى "كرسيّ النصارى"، وكان أبناؤها أشدّاء في القتال وأبطالاً في الصمود والمقاومة. لذلك أَعدَّ التخطيط للهجوم عليها الكولونيل الإنكليزيّ تشرشل. تجمّع دروز لبنان ودروز حوران وفرقة البدو في السهل، والمتاولة بقيادة الأمير مُحَمَّد حرفوش على المرتفعات الجنوبيّة، وطوّقوا زحلة من كلّ جهة. بلغ الزحليّين أنّ يوسف بك كرم هبّ لمساعدتهم، ولكنّ الخدعة كانت أن لبسَ الدروز الزيّ الزغرتاويّ وحملوا علمًا أحمر عليه صليب وراحوا ينشدون نشيدًا حربيًّا مسيحيًّا هابطين نحو زحلة من جهة نبع البردوني. هكذا دخل الدروز والمتاولة وذبحوا الشيوخ والأطفال والنساء والكهنة وأحرقوا المدارس والكنائس ونهبوا البيوت وتركوا زحلة خرابًا. فقدت الرهبانيّة في تلك المذبحة الأبوين بفنوتيوس وجرجس أنطونيوس مرعي. وكان ذلك في ١٨ حزيران ١٨٦٠.

و – شهداء سنة الستّين في دمشق

هجم الدروز وبعض المسلمين والجنود الأتراك بدايةً على القنصليّة المسكوبيّة في دمشق، ثمّ ساروا إلى قنصليّات النمسا وأميركا وفرنسا وهولندا وبلجيكا واليونان، فقتلوا من وجدوا فيها ونهبوا أمتعتها ووثائقها وأحرقوها. وبعد القنصليّات، توجهوا نحو الأحياء المسيحيّة، فقتلوا الرجال وسبوا النساء وحملوا بعض الرجال على اعتناق الإسلام، ولكن عادوا فذبحوهم. ثم ذبحوا الكهنة والرهبان والمرضى. أهانوا الجميع وأذاقوهم أصناف الذلّ والهوان. دامت هذه الحالة تسعة أيّام دون انقطاع. وكان نصيب الرهبانيّة المخلّصيّة الشهداء: الأب روفائل زلحف، الأب بولس زغيب، الأب ديمتري عبسي، الأب عازر مكتّف،

alors et pillèrent un monastère dans les environs de Saida (Saint-Sauveur) ; seize moines furent tués. Et néanmoins le gouverneur de Saida n'essaya même pas d'intervenir… »

الأب فلاسيوس بسرّيني، الأب ديمتريوس سعد والأخ سمعان جبارة. وكانت هذه المذبحة في ٢٧ حزيران ١٨٦٠.

٩ – استشهاد الأب جرمانوس لاون سنة ١٩٢٦

تعيّن الأب جرمانوس لاون سنة ١٩١٨ لخدمة النفوس في معرونة قرب معرّة الشام، وقد كان هذا الأب قويّ البنية الجسديّة. نُقل عن شهود عيان أنّ ثوّار الغوطة أتوا ليلاً إلى معرونة، على إثر وشاية من بعض أهل المعرّة الروم الأرثوذكس لخلاف وقع على رفع جرس كنيسة الروم الكاثوليك، وباغتوا الأب جرمانوس وهو نائم وجرّوه إلى خارج البلدة وهم يضربونه ويلحّون عليه بالتنكّر لدينه. أمّا هو فكان يردّد دومًا: "لا أموت إلاّ على دين المسيح". ولمّا وصلوا الى آخر بيت في البلدة، أطلقوا عليه الرصاص فسقط يتضرّج بدمه وهو يصرخ: "أنا أموت على دين المسيح". وكان ذلك سنة ١٩٢٦.

١٠ – استشهاد الأب بولس خرياطي سنة ١٩٧٦

لمّا كان الأب بولس خرياطي عائدًا من زحلة الى بلدته جون، وقد اتّخذها مسكنًا له في شيخوخته، حدث مقتل الزعيم الدرزيّ كمال جنبلاط في ١٦ آذار ١٩٧٦. فأُوقفَ الأب بولس ومن معه حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر على مفرق بلدة مزرعة الشوف وتعرّض للإهانة والضرب، وعبثًا حاول النجاة. أمّا المعتدون فانهالوا عليه ضربًا بالهراوات وطعنوه بالسكاكين وشنّعوا به، وذبحوه كخروف.

١١ – استشهاد الأب سعيد عبّود سنة ١٩٨٤

بعد أن اجتاحت إسرائيل لبنانَ سنة ١٩٨٢، عمّ الخراب وكثرَ البلاء. وبدأت سلسلة تهجير السكّان المسيحيّين من مناطقهم. في الجبل، أُنذر المسيحيّون بترك منازلهم وقراهم والتجمّع في دير القمر. فما كان من الأب سعيد عبّود، رئيس دير الملاك مخائيل في عمّيق المناصف، إلاّ أن التجأ مع شقيقه وعائلته إلى بلدة كفرقطرة. وفي طريقهم من كفرقطرة إلى دير القمر، هجم الدروز عليهم وقتلوهم ونهبوا المال الذي كان في حوزتهم وأخذوا السيّارة وتركوهم على الطريق قرب معاصر بيت الدين عند مفرق دير القمر. وعندما مرّ أحد معارف الأب عبّود من الدروز ورأى الجثث على الأرض دفنها إلى جانب الطريق.

خلاصة وعبرة

كلّ من أعتمد باسم المسيح لبسَ المسيح وأصبح مشروع شهادة. فإمّا أن يستشهد من خلال الجهاد الحياتيّ اليوميّ، وإمّا أن يُنعمَ الله عليه بشهادة الدم. الشهادة متأصّلة إذًا في حياة كلّ مسيحيّ، وبالأخص في حياة الراهب الذي كرّس نفسه لاتّباع المعلّم حتّى النهاية. ها صوت يسوع ينادي: "من أراد أن يتبعني فليحمل صليبه ويتبعني" (مت ١٦: ٢٤)؛ وأيضًا: "ما كان خادم أعظم من سيّده. إذا

اضطهدوني فسيضطهدونكم أيضًا" (يو ١٥: ٢٠)؛ وأيضًا: "وستُسلمون عندئذٍ إلى الضيق وتُقتلون، ويبغضكم جميع الأمم من أجل اسمي" (مت ٩: ٢٤).

ثمن الأمانة في اتّباع المسيح هي الشهادة، شهادة الكلمة وشهادة السيرة وشهادة الدم. إبتدأت الشهادة على الصليب ثمّ تابعت مع اسطفانس أوّل الشهداء والرسل من بعده، وما زالت مستمرّة مع المسيحيّين إلى اليوم. هؤلاء الآباء الشهداء الذين أوقفوا ذواتهم للربّ، لم يتوانوا عن التقدمة الكاملة لأنّ تكرّسهم مؤسَّس على المسيح. يوم النذور المقدّسة، يتوجّه الرئيس العامّ إلى المتقدّم بهذه الكلمات:

"...فكن إذًا مُستعدًّا لحملِ الصليب، لأنَّ المسيحَ دعاك لتجاهد جهادَ الأبطالِ إلى آخر نسمةٍ من حياتِك. لا تَحزَن ولا تتصاغرْ نفسُك ولا تيأس إن أصابك جوعٌ أو عطشٌ أو عُريٌ، أو هُزِئَ بك أو شُتِمتَ ولو هبَّتْ عليك زوبعةُ الاضطهاد. بل بالأحرى ٱفرَح لأنَّ أجرَك سيكونُ عظيمًا في السماوات. فتشدَّد إذًا في الضُعفِ معتمداً على قوَّةِ المسيح الذي بدونِه لا نستطيعُ شيئًا، ومعه نستطيعُ كلَّ شيء".

وحده المعتدي هو الوجه البشع في الشهادة. في قصّة كلّ شهيد، تبرز إلى العيان الوحشيّة الكامنة في قلب الإنسان الذي يرفض الآخر المختلف، والذي لقّنته إيديولوجيّة الموت أنّ الآخر شرّ وأنّ قتله حلال. غريزة الإنسان لا تحسب للإنسان أيّة قيمة ولا تنظر إليه إلاّ كونه فريسة محلّلة للذبح. وهنا قمّة الوحشيّة والهمجيّة.

والختام، ما الختام؟ أودّ أن أختم بتقديم تحيّة إكبار وإجلال لأرواح هؤلاء الرهبان الشهداء الذين رووا الأرض بدمائهم الطاهرة وأنبتوا مسيحيّين قدّيسين لا يزالون يحملون المشعل ويردّدون مع اسطفانس أوّل الشهداء: "يا ربّ، لا تحسب عليهم هذه الخطيئة" (أع ٧: ٦٠)؛ ومع بولس الرسول آيته البديعة: "الحياة لي هي المسيح والموت ربح لي" (فل ١: ٢١).